نزيه أبو عفش

سيرة الكلب

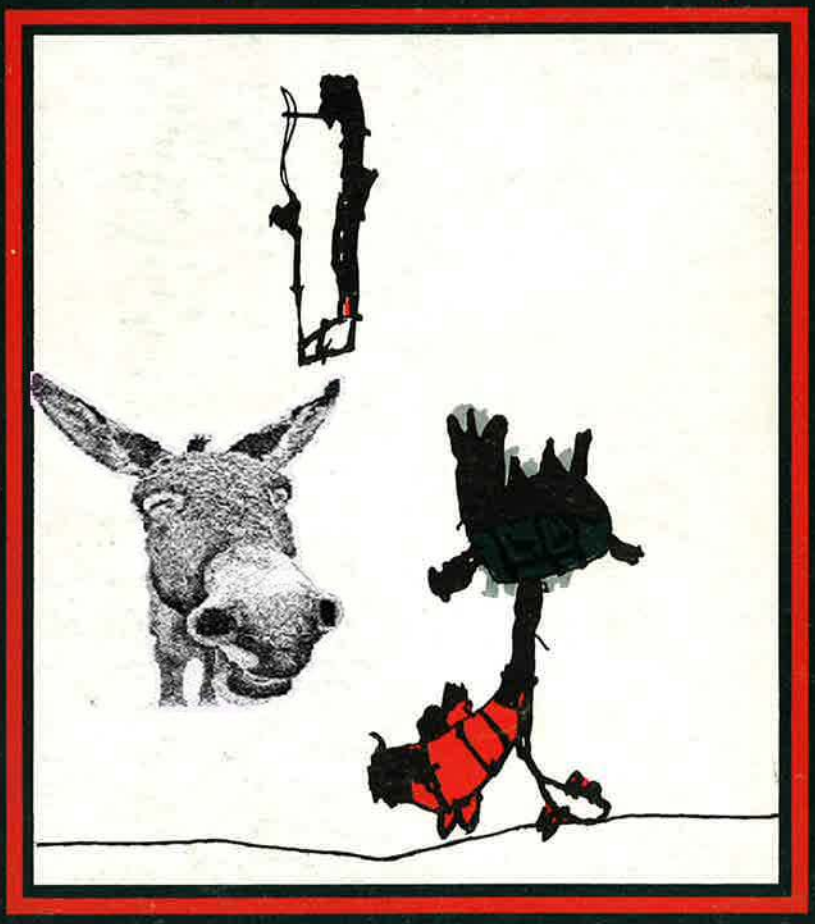

نزيه أبو عفش

بسيط كالكتب

العربية للدراسات والنشر والتوزيع

الغلاف
للطفل كنان أبو عفش
٤ سنوات

الرسوم الداخلية :

- للفنان أحمد معلا
- للفنان السوفييتي سكاسيس كراسوسكاس .

جميع الحقوق محفوظة

العربية للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ـ ص.ب ١٢٠٦٩
الطبعة الأولى ١٩٨٢

لم يعد الفن مرحًا

فاتح المدرس

قليلاً من الخجل أيها القديسون
قليلاً من القلب أيها الفلاسفة
الخراب يستحوذ على العالم
وأنتم تتكئون على الماضي!!
: إليكم عني...

أكتب حديقةً..وامضي!

« في وصف حديقة مجاورة . . . »

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب..
فلنفرح ولنتهلل به..»

أبدأ فأكتب «حديقة».

أخرج في الصباح. السادسةَ ـ السابعةَ أخرج في الصباح. أشعر، وأنا أحرر عينيّ من قفلهما، أن عليّ ألا أكون نائماً.. لا لسببٍ، لا لرغبة، لا لأن الصباح مفتاح أوقاتنا ومطلعها الجميل، لا لأن شيئاً... بل لأنني، فقط، تعودت أن أفعل ذلك.

الصباح عادتي الأولى: هكذا أكتب حديقتي.

.. وها أنا أخرج في الصباح. تحت مظلته البلاستيكية الخاملة. أنفث، كذاهب الى الحرب، شحوبه المكرور.. ورذاذه البخاري القانط.. وأزهار حدائقه البليدة التي... خليطٌ من بنفسج عقيم وزنابق رخوة.. وعصافير بلهاء، ممتنّةً لشيء ما، تنقر في الوحل.. وتعيد نفسها!!

هي إحدى عاداتي أيضاً. أتنفس صباحي الخاص، على عجلٍ كيلا يتملكني بهاء المشهد، ثم أبدأ بكتابة حديقتي.. وأتابع الحالة.

.. ..

هل سبق لكَ أن شهدتَ صباحاً في حديقة؟

أعني: هل سبق لك أن شهدتَ صباحاً في مقبرة؟

أعني: هل سبق لك أن شهدتَ أناساً بأجنحة رمادية ينقرون عشب الصباح الموحل؟!...

هل سبق لك أن شهدتَ مقبرة (أعني بلاداً) منشورةً على العشب.. كقطة تتنشف من الكسل والرطوبة وآثار اللقاح الأخير؟!

هل سبق لك أن شهدت بلاداً؟!....

!!...

وما الذي، تُرى، يميز حديقة الصباح عن المقبرة؟.. كلتاهما هدوءٌ خالص وتوجس كامن في الهواء. كلتاهما بنفسج مائل وعشبٌ موطوء.. وضبابٌ على هيئة رذاذٍ أسود يعكر مزاج القلب.. ويفسد الهواء.. ويخرب روح العصفور الى درجة لا يميز فيها بين فتات الخبز وعشبة الموتى!!..

وكلتاهما تجعل القلب منقبضاً.

وهل سبق لك أن كتبت حديقةً من قبل؟

حين يحاول المرء، في السادسة ـ السابعة، كتابة حديقة ما (لا الكتابةَ عنها).. فهذا يتطلب موهبة خاصة.. كسلاً خاصاً.. جرأة وإهمالاً خاصين. يتطلب أن يكون الإنسان مصاباً بالحديقة ذاتها.. تماماً كما يحدث لك حين تكون مصاباً بالحب أو التهاب اللوزتين أو نوبة الصداع المفاجئة.

« حالة حديقة ».. هذا ما يجعل الكتابة تسلّطاً، هيمنةً، قبضاً على روح الأشياء أو استسلاماً لها.

أما أن الحديقة ليس! مقبرة بعد... فهذا شأنها.

إن عليك أن تبصر المقبرة في الحديقة، في رواق الكنيسة القديم، في ما يحيط بثلاجة المستشفى، في السماء الجامدة الممدودة كمفرش الطاولة الأجرب.. خلف نافذة السجن.

أما أن أيّاً من هذه المقامات ليست مقبرةً... فهذا شأنه.

كل حديقة تضمر مقبرتها الخاصة أو تشي بها.

في الختام: كل حديقة مقبرة.. لعصفور أو بنفسجة.. أو صباح.

وهكذا ، سيدي ، تكون قد ارتُهنتَ لسلطان الحالة .

وهكذا ، سيدي ، تكون المقبرة قد فرضت صباحها عليك .. وعممتْ نفسها على العالم حولك :

تستند الى جدار وهمي سبق أن استندت إليه بظهر حقيقي .. بانكسار حقيقي .. بزنبقة مائلة وقلبٍ فقير ، عقب موتٍ لم يؤجل نفسه الى ما بعد ذلك الصباح البنفسجي العكر ، قبل شهر أو أسبوع أو ثانية .. قبل أربع وثلاثين سنة بالتحديد : (أربع وثلاثون سنة!! هي عمرك أيضاً) .

كانت الحديقةُ .. أعني الجدارَ .. أعني المقبرة ذات الأزهار المائلة وعشب البلاد الموطوء ، مائلةً في الهواء الفاصل بين عينيك والأسود الذي يملأ المكان . وكان الرجل ، غيرَ ممتنٍّ لشيء ، يتشبث بتراب الله الموحل .. مصاباً بجثة فارقها دمها ، فارقتها حرارتها ، وفارقها المعزّون .

.. ..

أنظر الآن جيداً .

إنك تبصر ، للوهلة الأولى ، كل ما يميز حديقة عن لا شيء .. أو عن أي شيء آخر .

وللوهلة الأولى يكون من الصعب عليك اكتشاف الشبه

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الحامم الذي يحولها الى مقبرة أوهمتْك رطوبةُ الصباح أنك تدخلها ، محمولاً .. أو معزّياً .. أو منشداً في فيلق الصباح الحزين .

لكن .. لا ، إنها المقبرة ولا شيء سواها .

أزهارها المحايدة ، كؤوس عصافيرها الجنائزي المحايد ، رذاذ الليل الكسول على وريقات سياجها الأزليّ .. الواجم المحايد ، بؤس حركة الحياة فيها .. إلخ ... إلخ ... إلخ !! حق ليخيل إليك أن العصافير التي هنا ، هي نفسها التي تعبث (هي التي عبثت فعلاً) بحشائش سقوف المقابر وجدرانها ، بل لا بد أنها تضع بيوضها الرمادية الصغيرة هناك .. في شقوق جدران الأضرحة المطلية بالبياض والأزرق السري الغامض ... تزق فراخها وتغني غير آبهة بجلال الموقف ـ المكانِ ـ الموت .

هي المقبرة ولا شيء سواها .. هذه الحديقة التي تشهد الآن اكتمال صباحها الجنائزي ، السادسةَ ـ السابعة من شتاء الموت الغائم . ولا شيء ينقصها بعدُ ، حتى يستكمل المشهد عناصره ، سوى بضع شاهدات أو صلبان مبعثرة هنا وهناك .. في أكمة البنفسج ، في ثلم التراب الأجرد الضرير ، قريباً من المدخل الذي يبدو بطبيعة الحال أن شيئاً ما ينقصه !! وما الذي يمكن أن يكون ذلك الشيء سوى شاهدة لقبر .. يتسلى عصفور مباغت بالقفز إليها وتلويث بياضها الرخامي البارد ، ماطاً

رأسه ، فارداً جناحيه ، منفوشاً .. كخطيب ، أو ملك ، أو ... معتوه!!

وتقرر ، بينك وبين نفسك ، أن تضيف الشاهدات والصلبان وطلاءات الأضرحة ... فتنضاف .

تحلّ الرهبة في الحال .

يتململ ، أو لا يتململ ، شيء خفيّ تحت التراب الجفِصِ الثقيل .

تتسارع حركة الماء في العشب .. فتغدو ذؤاباته ، فجأةً ، أطولَ .. وأبأسَ .. وأدعى الى التأمل :

عشبٌ يقتات على جثة في الحديقة .

عصفورٌ يقتات على عشب فوق ضريح الحديقة .

حديقةٌ في الحديقة ـ الضريح ـ المقبرة ـ الحدائق الموالية ـ المقابر الشاملة ـ البلادِ الـ ....

وأنت ، وحيداً .. ساهماً .. مهملاً ككفن متسخ أو عمامة ملوثة بالإهمال والندم وقصر النظر ، تراقب المشهد وهو يتكامل ممهوراً بالسواد والرهبة . تتفتح عيناك اللتان في جانبيّ القلب .. وتغيم صورة العالم المغبّرة بالكلس والأزرق وهشيم أزهار الموتى .

.. ثم ، شيئاً فشيئاً ، يتسرب الصدى المرير من شقوق

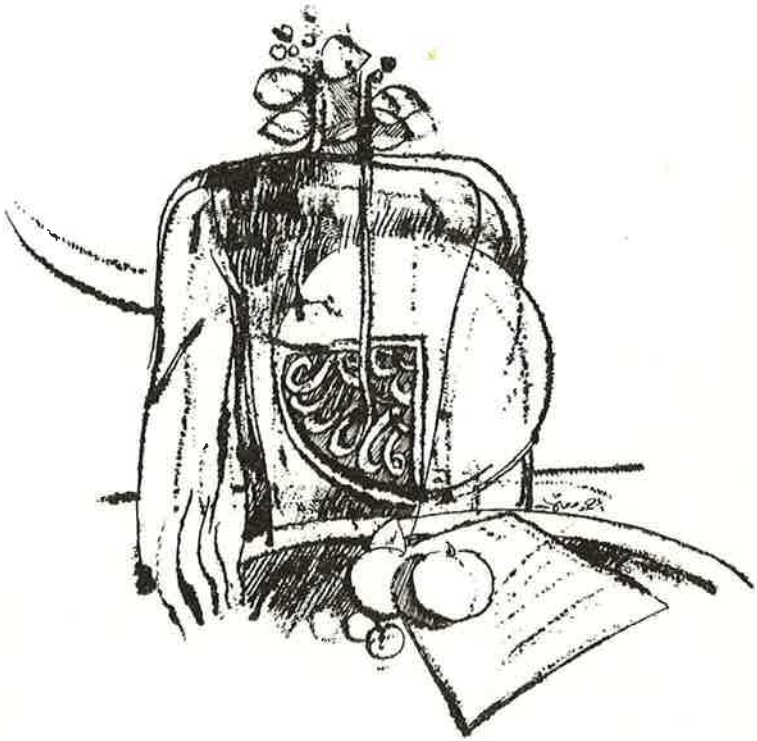

الأضرحـة المنتشرة في البعـد الأرضيّ المقفر . . المطموس . . المجرد من دلائل الوطن وعلامات الحركة فيه . يتشكل ويتكثف ، قبالة روحك ، حبلُ ضباب ناشىء متلجلج . . كذيل دخان تركته خلفها طائرةٌ خفيّة تتعثر في السماء الموحشة ، أو نبضة قلب ترتسم على شاشة مبقعة بالدم .

ثم ، شيئاً فشيئاً ، ترتفع قدماك عن الأرض .

ثم ، شيئاً فشيئاً ، شيئاً فشيئاً . . . ثم فجأة . . يضرب الزلزال الحديقة ويدركك النوم النهائي .

. . . . . .

وهـا هي (أعـني البـلاد الـتي تتنشف في الحـديقـة) أمامك ـ تحتك ، بأعشابها . . باختلاط الموقف على عصافيرها . . بأسمائها الملتبسة وروحها الشائخة . . بأشجار محيطها ، وأزهارها التي في طريقها الى الموت . . . في طريقِ تحوّلها الأكيد الى أزهار الموتى .

!!! . . .

الأزهار أيضاً . .

عرسٌ . . أو قبلة . . أو جنازة ميت : تلك هي الأزهار !

تبتذل نفسها ببساطة. تنحاز ببساطة ولا تخلص لأحد..
ولا تخلص لغاية... ولا تخلص حتى لنفسها.

«الصفراء منها؟»..

بل الألوان كلها.. قابلةٌ لأن تكون صفراء في الوقت المناسب.

أبيض الموتى..

أخضر الموتى..

خمريّ الموتى..

منثورهم..

فم سمكتهم...

كل ذلك يتحول فجأة الى الأصفر الدامغ الأكيد!!

هي هي.. الرخوة، المحايدة، الدلعة، المائعة، التي قبل عينيك بثانية واحدة.. كانت لها ألوانها ولهجاتها وانحيازاتها الاعتباطية المحيّرة.

ثم جاء الموت فبدّل الصورة.

ثم جاءت السادسةُ ـ السابعة فاكتسحتِ المكان.

ثم جاء من يملأ هواء العالم:

ليكن ذِكْره مؤبَّداً!!..

.. ..

.. ..

وها أنت محمول على نعشك.

توقفتْ أصابعك في منتصف السطر، وعيناك على الرذاذ السماوي الهامد كسلك نحاسي مبتور، وقلبك على زهرة!!

سيدي.. فتأمّل جيداً:

إنها الحديقة آخذة في الاتساع.. وهذه فرصتك الأخيرة (ما بعد الأخيرة على وجه الدقة).

جيءَ بزهر كثير (أصفر يا سيدي!!) .. وقصائد منهكة مبللة برذاذ مطلع الصباح الرصاصي.. وتثاؤب ختام الوقت اللذيذ.

والآن، يا سيدي، تستطيع إعلان سعادتك.

من علي نعشك الملكي المتأرجح كهودج عربيّ رافلٍ بالحرير والتنهد وصمغ اللذة... تستطيع أن ترفع رأسك قليلاً وتحيط بجلال المشهد.

والآن.. تستطيع أن تدعو العالم قاطبةً للاغتباط معك.

تستطيع ، من على عرشك الأخير ، أن تصرخ في البرية المطوقة بالأصفر الهشيم :

«أنظري أيتها الأم . .

إنهم أصدقاؤنا . . فلنفرح ولنتهلل »

ولا تتحفظ في شيء . وبالغ في المتعة . واندفع الى أقصى الفرح :

إن المشهد لن يتكرر بعد .

مجدك الذي من حديقةٍ أو مقبرة أو ملكوتٍ زائل . . يغص بالأصدقاء والمعزّين والقلوب النيّرة الدامعة : مجدك . ثم تنتشر الموسيقى .

وليكن اسمها الموسيقى . فالحدائق المقابر لا تغير من تسميات الأشياء .

هي الموسيقى إذن : طبولٌ . . وأبواق . . ومنشدون !!

ولطالما أحببتَ أن تستمع ، مسترخياً ، الى هذا المارش الختامي الحزين . هو هنا شيء آخر . . حضورٌ إلهيّ آخر . . ملكوتٌ هوائيّ يليق بتكريم بطل آفل ، يليق بفيلق الأصدقاء المكتمل ، يليق بك محمولاً على ثمانية أكفّ . . . مبكيّاً من آلاف الأعين . . . ومنسيّاً ، مع الظهيرة ، حيث يتبدد بخار الحديقة ، والأزهارُ تستعيد ثراءها وعافيتها وقابليتها للتكاثر .

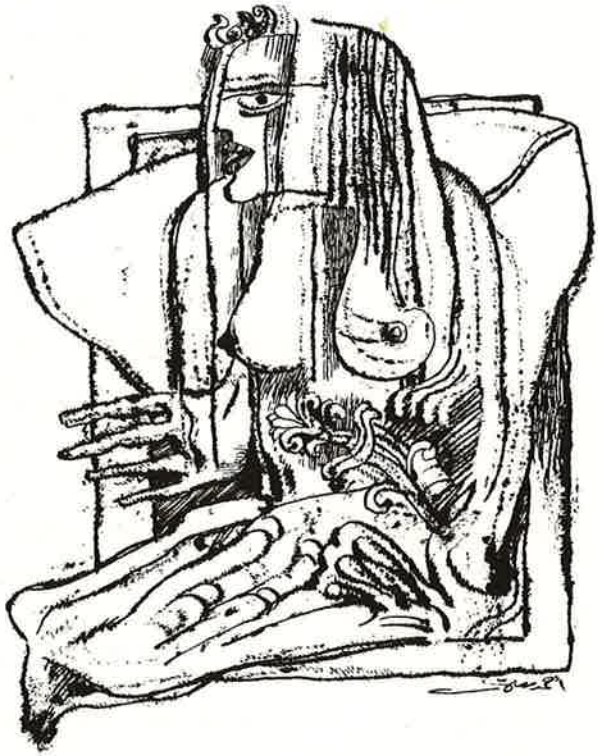

. . . . . .

لكن . . لا تضعوا أزهاراً صفراء : إن هـذا يعـني أننـا موتى .

لكن . . لا تكونوا صامتين : إن هذا يعني أن النسيان موشك ، والمتنصلين يملؤون القاعة .

. . ولا تكونوا بعيـــــــــــدين قبيـــــــــــل السادسةِ ـ السابعةِ ـ الحديقةِ ـ القنوطِ ـ الحاجةِ الى صباح الخير ـ التحية المخبأة في البريد ـ الكأسِ المشتركة على طاولة النميمـة والبهتـان ومشروع الـذبـح : أعزائي . . إن هـذا يعني . . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وسلفاً تستطيع استيعاب المشهد :

الطرودُ مليئة بالأزهار الصفراء !!

الحدائقُ مليئة ، الى قطبيها ، بالمقابر ومنشدي الصباح الحياديين !!

الأرضُ ، تحت دثـارهـا الصقيعي ، ملويّـة من النعـاس والحيرة وضباب البعد الموحش !! . . . .

•

هل سبق لك أن خرجتَ الى الصباح مرةً؟

هل سبق لك أن انتظرتَ معونة المحاربين التي دمرتها القذائف؟

هل سبق لك، تحت السماء المقفلة بالأشباح ورصاص الليل، أن جلست مبهوراً.. واثقاً.. متلعثماً بقلبك وأحزانك وصقيع سريرك الموحش، تتوقع بين لحظة وأخرى أن ترشقك المجرّات برذاذ حليبها السماوي المدهش؟

هل سبق لك أن أخلدتَ الى الكابوس وحيداً؟

.. وهل سبق لك، سيدي، أن شهدت حديقةً من قبل؟!....

دمشق- تشرين ١٩٨٠

هي هيلين.. هيلين

إلى امرأةٍ لا تُسمّى

للصباح الجليلْ
ينحني القلبُ في داخل القلبِ.
للخضرة الملكيّةِ،
للماء يحنو على الماءِ،
للصخرة الواثقةْ
لدبيب الشرارة في الروحِ،
للياسمين المجلجل والفلّة العاشقةْ
ينحني القلب في داخل القلبِ.
للشرَيانَ الهزيلْ
لانحناءاته الخزفية في ظاهر الكفِّ،
للمعصم الملكيّ النحيلْ

للندى المستساغ على السرّة المريميّةِ
للقبلة السائلةْ
عند زاوية الفمِ ،
للنبضة المستفيضة والغليان الطريِّ ،
لملمسة النهد بين الأصابعِ ،
للضمة الصارمةْ...
ينحني القلبُ
في داخل القلب...

. . . . . .

وعلى الفورِ أُنهضُ قلبي من النوم
محتفياً بالصباح الجليلْ
ناشراً معطفي ، كأميرٍ ، على كتفي
أمسكُ الأرض من خصرها

وأداري انكفاءتها بالذراع النحيلْ.
وليكن ما يكونْ
فأنا الفاتح القرويّ الهزيلْ
أكشف العورة المكفهرّة والسرطان الخبيثَ..
أعرّض قلبي لراعية في البساتينِ
مأخوذةٍ بذكاء الطيور وتفسير طعم الحشائشِ
مطْلِقة نهدها في الهواء المقطّرِ
مهجورة في البراري
تهجىء زقزقة الطيرِ،
ترسم شمساً على صدرها
ثم تنفض عن صدرها الشمسَ
تعدو الى الله ممسكةً بتلابيبهِ
تتبسّمُ..
أو تنحني..
أو تؤنّبُ..

أو.....
ثم ينفضُّ عنها الصباح الجليلْ
وأنا واقفٌ تحتَ شمس العراءِ
ألمُّ الحصى.. وأواسي النبات النحيلْ
زهرةٌ في فمي
وعلى معطفي
بقعةٌ من رذاذ الأصيلْ

•

كم تبقّى من الوطن الآن يا سيدي؟
كم مساءً تبقّى على الأرضِ في حوزة العاشقين؟
كم دماً؟!....
صِبْية يعلكون الحصى

وملوكٌ يخيطون أعلامهم وسراويلهم
سعداءَ ، طغاةً ، أذلاءَ ، مستوحشينْ
يحرثون السماء بخوذاتهم
ويميلون ناحية المائدةْ
والمساءُ الصغير يلمّ الحصى والخنادقَ
والصبيةُ الهالكونْ
يجمعون حطام البلادِ
ويقترعون على طلْقةٍ واحدةْ

. . . . . .

مشرفينَ على آخر اليأسِ
نمضي الى مقتلٍ كائنٍ في المساءْ
مخبأةً في الحقائب أسرارنا ومقاصلنا .
مشرفين على سنةٍ من بلادٍ مبعثرةٍ
وزمانٍ هزيلْ

ذاهبين الى آخر الله.....
لا عَلَمٌ يستر اليأسَ
لا رقعةٌ من هواء يُؤدّى بها الحبُّ
لا خلوةٌ للبكاءْ
ذاهبين الى آخر الله...
تحت سماء مبطّنة بالرصاصِ
وأرضٍ مغلفة بالدماءْ..
وبلادٍ تقيم جنازاتها في الهواء...

كم الساعة الآن يا سيدي؟
كم هي السنة الآن؟
كم يبلغ الليلُ؟
في أيّ منفىً رأيتكَ؟....
ضيّقة هذه الأرض يا سيدي

ضيّقٌ في البلاد الهواءْ
ضيّقٌ في البلاد الندى والبكاءْ
ألمساء الرؤوم وعشب الحديقةِ..
ضيقةٌ فسحة العاشقَينْ
السرير الذي ضم جسميهما.. ضيّقٌ
فاقترح للشهيدين ناحيةً
رقعةً من هواءٍ بليغٍ وسجادةً للصلاه
جذع صفصافةٍ
خندقاً
منزلاً في الجبال لتأدية الحبِّ....
أو خلوةً لاستعادة أصل البكاءْ

.. وكم الساعة الآن يا سيدي؟
وكم الوطن الآن...؟

جرّدني صاحبي من ثيابي وقلبي
قادني من يديّ الصديق وأهملني في العراءْ
قلتُ: لا تقتلوني
قلتُ: أو فاتركوا زهرة في يميني
قلتُ: أو فاعدلوا
غير أن الملوكْ
أقفلوا بالرصاص دمي
واتّقوني

... وبلادٌ، بلادٌ، بلادٌ
هي الطلْقة الآنَ:
خمسون صاعقةً في السرير!
وخمسون مقصلة في الحديقةِ!
خمسون عرشاً تقوم على كتف القلبِ!

ألف وخمسون مرتزقاً يذرعون الحديقةَ
ملتهمين الحصى والحشائشَ!
خمسٌ وألفون مذبحةً في الوصيّةِ!
خمسون ألف شهيد ينامون تحت الوسادةِ!
خمسون مقصلةً
وبلادٌ
بلادٌ
بلادٌ تقيم جنازاتها في الهواء....
: كم السنةُ الآن يا سيدي؟

إن وقتي مضى
واحتمال المسرّة يذوي
يزوغ الندى والختام الهنيء
تجاوزني الأصدقاء وأينع قلبي من الحزنِ

هيلين ذاهبةٌ
.. وأرى مقتلي في الشعاع البريء .
: كم الوطن الآن ... يا سيدي؟!

●

حسناً .. حسنانِ .. فقد مالت الأرضُ
منفرطاً عن جديلتها الزهرُ
ميْتاً على ساعديها القتى ...
حسناً .. حسنانِ
ولكننا .. لم نزل نتلفّت من حولنا
نتلمّس عِرْق نبات هنا
نتتبع خطو غزالٍ هنالكَ
نرسم شمساً على باب مقبرةٍ
ونزيح الركام الثقيلْ

نستعيد الغناء البديعَ
ونستنهض الأصدقاء القدامى
نستهلّ جنازاتنا بالنشيدِ
نقيم بلاداً ، على حجم أجسادنا ، في السريرِ
... ونهربُ
رعدٌ يبعثرنا ورعاةٌ يلمّون أشلاءَنا
في السرير ، على حجم أجسادنا ،
وطنٌ مُدْلهمّ ونار تذيب الأصابع ..
موسوعةٌ من قضاة .. ومستعمرين .. وموتى
وأضرحة تتململ مثقلةً بالقصائد والمنشدينْ
هنا ... وهنالكَ
ربٌّ يبعثرنا ورعاة يلمّون عنا الندى والقصائدَ ...
فليشعل الأنبياءُ الفتيلْ

●

وليكن ما يكون
المساءُ لنا حين تنقفل الأرضُ،
والزيزفونات يعلنَّ أوصافنا الطيباتِ
ويحنو علينا سياج الحقولْ..
وليكن ما يكونْ
وليكن أنكم تعلمونْ
وليكن أن قلبي الذي ضاع مني
في صميم المساءْ
هو قلبي الذي ضاع مني...
فأنا الولد القروي الحزينْ
أنا ابن القرى والنبات الأمينْ
سليلُ الدمار المهيمن والهدأةِ المقلقةْ
أطْلعُ الورقةْ
في أوان العناقِ
وأُبْرمُ في حينها الطَلَقةْ

. . . . . .

زهرةٌ ضيّعتني
زهرةٌ أهلكتني
زهرةٌ تركتْ قلبها في يدي..
وافتدتني

وأنا الولد الجبلي النحيلْ
أنا هذا اليسوع المؤبّدُ
مقصلةٌ في سريري
ومقصلةٌ في لساني
ومقصلةٌ في دمي..
مطرٌ من رصاص يحاصرني
ورماةٌ أكيدونَ

عشرون سمَّنةً ترتمي في قميصي
مؤججةً بالندى والرصاصِ ،
وهيلينُ مطفأة في سريري
تَعدّ حصيلتها من دمي

: ألف مرحى لهيلين...
مرحى لهيلين..
مرحى لزوبعةٍ حاصرتني
ومرحى لنيزكةٍ أحرقتني
ليدٍ وهي تضمر طعنتها باركتني
لسماءٍ مبطّنة بالرصاصِ وأرضٍ مغلفة بالسجاجيدِ
للوارثين العتاة يلمّون عني الحصى والقصائدَ
يقترعون على جثتي وقميصي
ثم يرمون قبعتي في الهواء ويمضون....
: مرحى لهيلين

. . . . . .

ولنفترض جدلاً أن هيلين نائمة في سريري
إذنْ.. إن هيلين نائمة في سريري
تفنّدُ أنحاء جسمي
تعيد اكتشاف الكلام البسيطِ
ولون الحشيش الطبيعيِّ..
تنشىء ناراً وتجمع في سرّها حطباً ونبيذاً،
تبعثر أشعارها في الهواءِ،
تردّ الغطاء على جسمها.. ثم تلقيهِ،
تجمعني وتبعثرني في صميم المساءةِ
ثم تمدّ على عجلٍ يدها
وتودعني

. . . . . .

ولأقلْ أن هيلين كانت معي
ولأقلْ أن هيلين مدت على عجل يدها
ولأقل أنها ودعتني.

هي هيلين.. هيلين
كوكبةٌ من ندىً وزبيبِ
فمٌ شاحبٌ
ويدان تلمّان عني الندى والقصائدَ..
ها خَطْوها
ها دبيب ارتعاشتها في القصيدةِ
وا.... ها الندى فوق سرّتها
ها العصافير تزقو على حلمتيها وترفل في جبّة اللهِ..
ها كلّها في قميصي
فمٌ شاحب ويدان تلمّان عني الحصى والحشائشَ
نارٌ مؤجلة وهلاك أكيدٌ
... وإلا فمن أين تأتي القصيدةُ؟
إلا... فعن أيّ زاوية في الخريطةِ
تنجم هذي الشجونْ؟
وإلا فمن أين يقبل هذا الدوار الجليلْ؟

وعلى أيّ مفترقٍ
يستدير الفتى
ويغطي انكسارته بالغناء الجميلْ؟!..

●

زهرةٌ آلمتني
زهرةٌ ضيعتني
زهرةٌ، منذ يومينِ أو سنةٍ أو بلادٍ،
تركتْ سرّها في دمي
ورمتني..

. . . . . .

وكنا نُعدّ مساءً صغيراً
يليق بمقصلة أو سريرٍ
وكنا نعد الخطى والكلام البسيطَ
اخترعنا خيولاً وكومونة في الجبالِ
افترضنا نبيذاً وناراً تدفئنا
وغفونا على شِبه سجادةٍ من ندىً ونعاسِ

ولكن هيلين كانت تَعدّ الخطى والكلامَ...
وكانت تودّعني.

•

سقطتْ قطرة من ندى فوق قلبي
قلتُ: فلتصحُ هيلين من نومها.
قلتُ: فليأتني الصاحب المستحيلْ.
قلتُ: هيلين، يا ابنةَ عمي، أنا خائفٌ
قلتُ: هل جاءنا أحدٌ؟!..
قلتُ: فلتمنحيني السلامَ الأخيرَ
أنا الآن مسترسلٌ في نداك وخبزكِ
خيَّرني اللهُ
فاخترتُ خاتمتي ودخلت صميم المساء
... وهيلين ذاهلةٌ:

أذنانِ..
فمٌ..
سرَّةٌ

نحلتان على صدرها
تجمعان الندى وترشّان زهر الإناءْ
ثم قبّلتُها
ورددتُ على جثتينا الغطاء

شتاء ٧٩ـ ٨٠

« عندما أقرأ نفسي
أقرأ كتاب الله . . . »

جاكوب بوهم

المضيق..

لا تقفلوا الصالةَ
نحن خارجونَ
فسد الهواء في المبنى.. ونحن خارجونَ.
انتظريني لحظةً أيتها الفتاة في الصف الأماميِّ
تمهّلْ أيها القاضي العميقُ
أقفلِ المحضر يا خفيرُ واسمعني قليلاً...
: فسد الهواء في المبنى.

هدوءاً أيها الرفاق في معسكر اليأسِ
هدوءاً أيها الخطيبُ في المجلسِ

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

يا سكانَ هذي الأرضِ
يا دهماءُ
يا سادةُ
يا رعاعُ
يا مقاولونُ..
نسد الهواء في المبنى
ونحنُ.....

: عِمْ صباحاً أيها الفقي
عِمْ أيها الشيء الذي يفدق عطر اللوز في المبنى
عمي أيتها الشمس التي تبزغ من أغنية العاشقِ
عم يا حلوُ.. يا نديٌّ
يا أخضرُ.. يا ورديٌّ
يا شاحبُ.. يا سكيرُ
يا بنتُ

عِمي...

أيتها الفراشةُ الجذلى تحطّ تارةً على فمي
وتارةً تباغت الشعاع في إناءة القلبِ
تحيك زهرةً في القلبِ
ترفو ثغرةً في القلبِ
أو تلقي حصاةً في دمي...
عِمْ أيها البنفسج الخطيرُ
عِمْ يا نهدُ.. يا أميرُ
يا حمامةً تهدل في الصدر ولا تطيرُ
يا.....
وعِمْ صباحاً أيها الصباحُ
عِمْ يا جارُ
(يمشي الجارُ في الطريق مائلاً
تشعّثَ الوقتُ عليهِ)
عِمْ مكاناً أيها المنزل في نهاية المشهدِ

يا جدارُ
يا مسمار...
والمسمارُ في موضعه السالف مهجورٌ
تهدّلت عليه سترة الوالدِ
(مهجورُ..)
تهدَّلت فارغةً من جسد الوالدِ
من يديهِ
من سعاله الناشفِ
من آثار ذات الجنبِ
من... يمضي صباحاً ويعود في ختام الليلِ
من بكائه في الليلِ
من قامته تهدّلت عليهِ
من قلبي عليهِ
يستدير خارجاً و: «عِمْ صباحاً أيها الصبيُّ».

من رجاحة اليأس على ابتسامة الصغيرِ
من صليبه الفقيرِ فوق الرأسِ

من أمي

تلّم صرخةَ القلب التي تسقط في وعاءة الطحين

عِمْ يا وقتُ.. يا أرضون

عِمْ كآبةً يا أيها المنسيّ في زاوية الصالةِ

يا هالكُ يا مراقب الصالةِ..

نحن خارجونَ:

فسد الهواء في المبنى

عموا خراباً.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل كان يلعبُ؟.

(أقصدُ الولد الذي كتب الوظيفة واختفى..)

هل كان يلعبُ؟

هل توهّم أنّ جنيّاً يشاطره القميصَ
فلاذ يعدو في تراتيل الكنيسةِ؟!..
هل تلقّتهُ الملاكةُ عند منعطف المساء
وأمسكت يدهُ؟!..
هل اقتفتِ الغزالة خطوهُ
واستدرجتْه الى سرير الليل؟!
: يا ولدُ اقتربْ
يا حلوُ، يا ولدُ... الذي كتب الوظيفةَ
.. واقتربْ
(أم كان يبكي؟؟)
: أيها الولد الذي في دفتر الإنشاءِ
ترسم حافة الدنيا.. فتهرب خائفاً منها
وتكتب زهرة اللوز الصغيرةَ!...
أنتَ..
يا ولدُ...

الذي في علبة التلوينِ
تبتكر المنازل والبحارَ
وتنشىء الأقمارَ..
يا ولدُ..
الذي
في الليل يبكي
إننا نبكي..
حزينونَ،
وحيدونَ،
خرابٌ،
قمرٌ يذوي،
دخانٌ...
نيزكٌ يفرّ من ملاءة الليل الذي يبكي
مهجورةٌ قلوبنا
كحدوة الحصان فوق حجرٍ يبكي

تآكلتْ أرواحنا من كثرة الإهمال والسيرِ..
رمادٌ وقتنا..
رمادٌ الأرضُ التي نطلبُ..
أفشينا على مرأىً من الخرابة السرَّ
وأخلدْنا الى الإهمالْ

. . . . . .

... هكذا يُختتم الوقت إذنْ؟!
وهكذا أيتها المرأةُ لم يبق سوانا الآن في هذا المضيقِ؟!
لن نعدّ قهوة الصباح مرةً أخرى؟!
لن نجمع الأوراق من حديقةِ المنزلِ؟!
لن نفلسف الليلَ على مائدة الغداءِ؟!
لن تزعجنا نكاتُ ضيف الأحد الثقيلِ؟!
محضُ اثنين ها هنا..

يزوغُ نجمنا..
نمضي وحيدين الى خاتمةِ الوقتِ
حزينين كما نرى..
سريرٌ واحد يكفي كلينا
وجبةٌ واحدة تكفي..
وتابوتٌ على شكل فراشة في دفتر الرسم الذي....

نحن حزينان كما نرى
يزوغ نجمنا
ونبني في السرير دولةَ المنفى!...

: قف أيها الحوذيُّ.
يا تلميذُ لا تعدُ سريعاً.
أيها الجنديّ لا تشاكس المرأة في الشارعِ.

يا أيتها المرأةُ
ما أحسن تكوينكِ..
ما أبدع نهديكِ يؤرجحان في الهواء قلبي!!.
أيها الحوذيّ قفْ..
يا أيها الحوذيُّ
يا جنديُّ.. لا تذهب وراء الحربِ.
لا تبعدْ كثيراً أيها التلميذُ..
يا حوذيُّ....
يا.....
(لا يقفُ الحوذيُّ!!
والتلميذ يمضي في الفراغ تاركاً دفترهُ الإنشاءْ
وقلبَهُ ملوثاً بالحبرِ.. لم يبق فراغٌ فيهِ!!)
يا جنديُّ.
يا جنديُّ.
(... والجنديّ يمضي في طريق الحربِ!..)

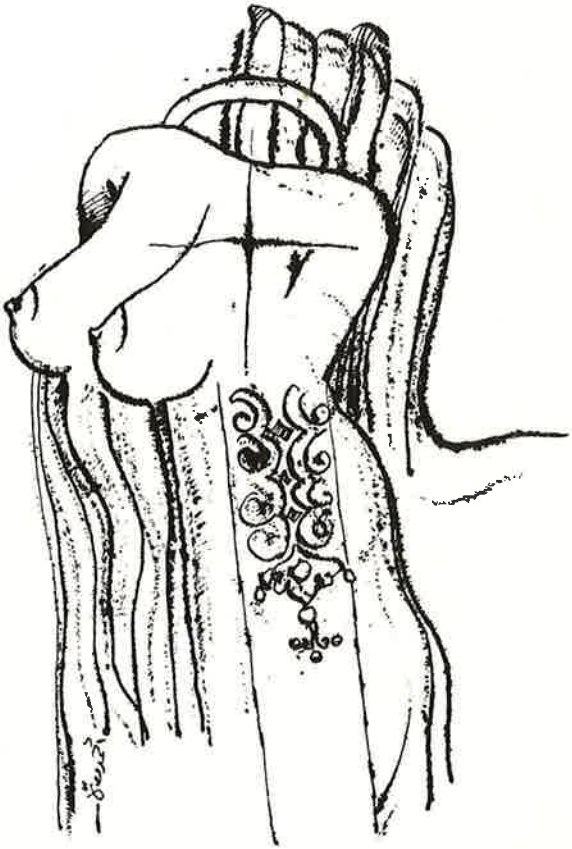

والحمامُ
والأيامُ
والقلب الذي....!!
تبخّر الحمامُ..
والمرأة أقفلتْ قميصها
واعتصمتْ بالليلْ

.. ..

- مَنْ هنا؟!
من حرّكَ الفراغ في الصالةِ؟!
منذا أيقظَ الذباب في حظيرة الماعزِ؟!
من يمشي على السطح الترابيِّ؟!
من القادمُ في ارتعاشة الجفن الذي يرفُّ؟!
منذا أسقطَ الدلو الذي كان على البئرِ؟!
من الذي أقلقَ نوم السيّد الجنّي في البئرِ؟!

تمهّلْ أيها «اللاأحدُ» الراكض في البستانِ.
: يا بستانُ.
يا فراشةً في آخر البستانِ.
يا جنّيُّ.
يا صبيُّ.
يا هناكَ.
يا هنا...
تمهل أيها الخوريّ واسمعني قليلاً
«هل رأيتَ أحداً يمشي؟
سمعتَ أحداً يصيـ.....»

(لماذا يقفُ الخوريّ ساكتاً؟!)
: يا امرأةً ليست هنا..
يا ولداً ليس هنا..
يا عمُّ..
يا لا أحدٌ..

يا طائراتُ
يا مجنزراتُ
يا هواءنا الأوّلَ
إن فجوةً في القلبْ...
إن نجمةً تسبل عينيها وتهوي في فراغ القلب...
إن القلب.....

- مَنْ هنا؟
- الهواءُ..
كنتُ أجمع الموتى عن السطح الترابيِّ.
تفشّت لوثةُ الخراب في الموضعِ..
يا أيتها الأرض التي تهربُ
في الوقت الذي يهربُ..
يا أيتها الأم التي تبكي
على كرّاسة الطفل الذي يَغْربُ..

قل لي أيها العمّ الذي يدور في الساحةِ:
هل أضعتَ شيئاً؟..
!!.....

أيهذا المشهد العصيبُ
ياذا القمرُ الساقطُ.. يا عجيبُ..
واسمع أيها الضابطُ
يا ضابطُ..
إن أحداً يبكي،
الجنودُ خائفون.. والهواء باردٌ
تأخر الإمداد عن فوج المدرعاتِ،
فرقة الإنقاذ تَخْلي الأرض من سكانها،
فصيلة المراسلين سقطت في الفخِّ
والبريدُ لم يصلْ...
نحن حزينون تماماً
وحزينون تماماً.

وحزينونَ
وخائفونَ
نحن هكذا ....
مهملةٌ أرواحنا كحدوة الحصان فوق حائط يهوي
حزينونَ تماماً ... ونموت هكذا : .....
وهكذا .. تمدُّنا الأرياف بالزبيبِ والحنطة والجنود
تخصّنا صحافة النجوم بالأسْود في الأعمدة الأولى
تمدّنا عواصم العالم بالرأفةِ
والسردينِ
والأغطيةِ الصوفِ
وأصنافِ المجاملاتْ!...

ليأتِ سادة العالمِ ،
يأتِ العالمُ ،
المعلّقونَ ،
يأتِ أربابُ الملفّاتِ

ليأتِ الضابط الأكبرُ
تأتِ قمرة القبطانِ.. والسائقُ
تأتِ زمرة المديرِ..
والجوقةُ..
والشيطانُ
والـ.....
ليأتِ من يرتبُ العظام في الأرضِ
ويتلو سيرة الموتى على الموتى

... ونحنُ:
فسد الهواء في المبنى..

•

: هنا البلادُ.
وصلتْ رسالة الحربِ:
الجنود محشورون في الطرد البريديِّ

جباةُ المجلس الحربيّ يجمعون بيض العيدِ
والزبدةَ
والأولادَ..
في الجبهة.. يجْبون من المجندين عطلةَ الأسبوع والنومَ..
من الأمواتِ.. ما ليس شجاعاً:
صورَ الممثلاتِ
دفتر القلبِ
تصاريحَ المغادراتِ
قبلةَ الوداعِ
منديلَ الفتاةِ
زرقة الخوفِ
التوسلاتِ.....
(كل شيء حسنٌ في الحربِ
والموتى مرتّبون في مشرحة الفوجِ!!..)

كفى هلاكاً.

أوقِفوا الرصاص في الشارعِ
كي نخرج من هذا المضيقِ.
أوقفوا إذاعة السوء التي تجأر في المبنى
وحاولوا أن تفهمونا مرةً..
نحن حزينون تماماً
وحزينون تماماً
كل شيء هكذا..
ونحن هكذا..
وهكذا..
ترون أنَّ
كيف أنَّ
غير أنَّ
كيف أننا...
ينقصنا المزيد من «هذي التوابيتِ»
ومن «تلكَ»
ومن....

ينقصنا بعض المشيّعينَ:
امرأةٌ تبكي قليلاً،
رجلان يحملان كرة الأرضِ،
محافظٌ يخطب في الهواء،
أطفالٌ يشيلون الأكاليل التي يحملها البريدُ..
كاهنٌ..
وصحفيٌّ لالتقاط صور الذكرى!!

.... ونحنُ
(فسد الهواءُ)
محض اثنين في هذا المضيق الرحب!...
(هل يختلف اثنان على رداءة الموتِ؟)
أنا شهدتُ:
ألأرضُ مختلٌّ نظامها.
ألأولادُ في ثلاجة المشفى منسّقون حزماً.

شاحنة التبرعات غرقت في البحرِ
والسردينُ . .
يمضي عائداً الى ذويه!! . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أقفلوا القاعةَ .

دمشق- شباط ١٩٨١

ما سوف يبقى

هدوءاً . هدوءاً . هدوءاً .
إنني أرى الوقت ينقر على غطاء الكوكب
منذراً بحلول الخنجر وختام القبلة .
وأرى الله الى جواري .. يرتجف من الخجل والحمى
يرقب الخريف المترجرج على الماء
يحصي الفيضانات والزلازل ونعوش الموتى
ثم ينسحب ، الى منفاه الأزرق الأثيم
دامعاً ، أشعث ، ملوياً من البراءة والذل والعدالة الشائخة .

وخلف النافذة ، خلف الكرسي
فوق السرير وتحت غطاء القلب
ينظم الرعاع صفوفهم وينفضون الغبار عن الأسلحة
يسحقون الفَراش ويعلكون توبج الزهرة
يتركون على كل شيء آثار نعالهم الخسيسة وخوارهم الأرعن
متمرغين في الذهب والبراءة والمياه المقدسة

مؤرجحين مباخرهم في الهواء
كمعمدانات حقيقيين ، كآلهة ، كأرانب
يفرغون الزوبعة من نارها ، والبرقَ من جسارته
ثم يقلبون الأرض على مؤخرتها ويُعملون خناجرهم في الهواء

وحيث تشي الدمعةُ بالحب ، والآهةُ باللذة ، والقربانُ المقدس بديدان الموتى ،.. أكتشف أن العالم يفتقر الى النظام ، والأرضَ الى الثبات ، وقلب الانسان يتضور من الكسل والفوضى وانعدام الشجاعة .

أدلُّ العاشقة الى جسدها ، والعاشقَ الى قلبه ، والرعاعَ الى النار .

أسفّهُ ما كان .. وأكشف بطلان تصميم الحياة .

أصرخ في الكائنات والهواء ومخادع الموتى
حتى يتصلب قلب العالم من الكآبة والذعر .

أميط الكتب عن القلب .. وأفسد صلاة التوبة .

أركل الأرض الهائجة ، وأبعثر موجوداتها ودمائلها وفساد قلبها .

أضرم النار في المعسكرات والسجون ، وأوقف عقارب الوقت على ملمس القبلة . . وموعد المساء . . ورشفة النبيذ الأولى .

سأسوّي حسابي مع الوقت . سأسوّي حسابي مع العالم .
كإله نشيط ، كطاغية ، كشاعر مائل الى الصمت . .
أنقر على غلاف الكوكب وأوقظ سكانه من الذل .
أطلق البركان من قوقعته وأحرر العاصفة من نومها .
أمزج السماء بالأرض وأقفل روح العالم .
أقطع الممرات الى الماضي . . وألغي الحركة .
أتكىء على أسراري وغموضي وأحلم بالزلازل . .
ثم أجلس في الهواء المعتم وأرقب هلاك العالم .

•

أيها الله . .
إن قلبك يفتقر الى العدالة والرأفة والمعرفة
افتقار العاشق الكسول الى الألم .

•

هدوءاً . هدوءاً . هدوءاً .
إنني أعلن انسحابي من العيش
حيث تتكىء اليمامة على النصل ، والجرذان تتآلب على الأمتعة .
حيث لا رجاء للعاشق ، لا هواء للقصيدة ، والطرقُ مؤجرة للقوادين والمرتزقة ومهيئي عربات الموتى .
وكقديس شرير . . . كمسيح بدائي . . أحشد البراكين والأوبئة والمجازر ، ثم أقفز الى سرجي وأتنصل من الخاتمة .

: أيها الله أعنّي على تسوية أوضاع هذا العالم .

•

وهدوءاً . هدوءاً . هدوءاً
إن الله ينتظر على النّافذة
خائفاً ، مكسوراً ، دنساً . .
بقلبٍ ضامر وصوتٍ مشلول
يحجب الطلقَ عن المرأة . . والليلَ عن العاشق ،
يختم المشيمة بالقطران ، ويدلق المحبرة على قميص الشاعر ،
ثم ينكفىء على نفسه ويغتسل من الدمار الصريح!! . .
: هدوءاً .
هدوءاً .
هدوءاً .

وفي ساعة ما أريد أن أتوقف
على حافة « الخامسة » النيّرة الرشيقة
أريد أن أسند قلبي وأستتب
بين شمعة تشير الى ميلادِ نبيّ
وسريرٍ يرتبه الله لعاشقَين مقبلَين على بناء العالم .

. . . . . .

أيها الله أعنّي على ترتيبِ محتويات هذا .....

•

وكالبهائم الى معالفها ، نمتحنُ قلوبنا وأسلحتنا .. ونَنْشُد أرضاً خاوية ..
مركزها وخطٌّ استوائها السجونُ والقلاع والمداجن .
كالبهائم الى معالفها ....
ننساق الى عالم لم يعد صالحاً للسكنى
عالمٍ مليء بأناس وحيدين
يتدافعون بالمناكب والفؤوس وسنكات البنادق
يسلكون الطرق ذاتها .. والجحيمات ذاتها .. وذات قلب الشيطان .
متشابهين في الكَلَب والحمى وتصاميم الموت .
ينسّقون الجثث والمقابر والزنزانات . يكاثرون الأزهار الشاحبة تحسباً للميتات المفاجئة . يرِثون الوداعة والذل وطمأنينة الموتى . يكتسبون معاصمهم ، بنحولها وهشاشتها وقيودها المؤكدة ...

مائلين من الرضا ، منفوخين بالغازات ، حكماء بالأسلحة .
تهزهم نسمةٌ . . . وقلوبهم مطموسة بالغبار :

سماؤك واطئة . . وجدرانك تضغط على القلب
أيها السيد العالَم .

•

وقليلاً من الخجل أيها القديسون
قليلاً من القلب أيها الفلاسفة
الخراب يستحوذ على العالم . . وأنتم تتكئون على الماضي!! . .

: إليكم عني .

•

عالمْ . عالمْ . عالمْ
أيها الشرير ، الغامض ، الكابوس ، الخرافي
بقرنيك المذهبين وعانتك المطيبة
بتنابلك وقديسيك وخصيانك المتوَّجين . .
أنت تذهب الى خرابك ، وأنا أتحفظ على قلبي .
تهدهد خصيتيك . . وأحتاط على قصيدتي .
أنت الى الهاوية . . . وأنا الى الطعنة .

: مقفلٌ وغامضٌ ومجنون . . . . .
فكيف لي أن أتّقي هذا العالم ؟!

•

مستوحداً ، مرذولاً ،
كارهاً وشريراً وحاقداً . .
أدرب قلبي على القسوة . . وأبحث عن الله في غير موضعه .
على هذه الرقعة من الأرض
تحت هذا الثقب من السماء
أطرد الأصدقاء والوطن والأمهات

أتكىء على وجعي وأخطط لبناء العالم
حنوناً كعاهرة ، وفياً كالأبالسة ، عادلاً كالبغضاء . .
شهماً وصريحاً كمزوري الجوازات في حضرة شاعر مثلي

: أيها الله
أعنّي على ترتيب محتويات هذه الليلة

•

لا رحمة لأحد .
لا غفران لأحد . .
في مدار الذهب والتيجان والرعاع المطاوعين
لا رحمة لأحد . لا غفران لأحد
حيث تصفّق اليمامات للثعالب ، والموتى للملوك
والطغاةُ يرجمون الكوكب ويكشفون أسنانهم المذهبة .
حيث تتجانس المشانق والأعلام ، الشمعدانات والخناجر ،
يجلس القاتل على كرسي الشاعر
والجرذان تتناوب اللذة على سرير البتول

والعالم ، جميعاً . . جميعاً . . جميعاً ، يطلق صرخته المستديرة الكاسرة ، كامرأة تدركها اللذة في خاتمة الاغتصاب .

: إليكم عني

لا رحمة لأحد .
لا غفران لأحد .
موتاً . موتاً . موتاً : هذا ما أريد أن أصنع .
موتاً . موتاً . موتاً : هذا ما أُعِدّ . .
موتاً . موتاً . موتاً : هكذا أتقي هذا العالم .

•

وها أنا أرى جيداً ، ها أنا أرى تماماً ،
تحت غطاء الكوكب السقيم
حدائقكِ مطموسة بالرماد والقاذورات
على أعشابك السوداء تتشمس القطط الغاشمة . . وتقيء الجرذان إفطارها .

تحتل السحالي أراجيح الأطفال . . والتماسيح تقفل ساقية الأوز .
وأرى الأرض خاوية ، والسماء مرصعة بالأختام .
يبهرني الفراغ . . وأسمع رنين الهواء الجامد!! . .
لا نأمة في الجوار ، لا غناء في الحوصلة
تحت قبة الله المثقوبة بالرصاص ، على زعنفة الأرض
الذاهبة الى الهلاك ، في الأديم الخارق . . الأسود . . الأخير .
أوت الحلازين ونام الجندب
هرب النبات وأخلد الشعراء الى النعوش . .
لا نأمة في الجوار . . . لا غناء في الحوصلة
كل لفتةٍ سوادٌ ، كل صلاة جنازٌ ، كل فم شاهدة قبر .
عسكريون . حروبٌ . قدّيسون .
مجازر قادمة . صمتٌ كليّ . وعدالة نائمة في الكتاب .
ذبابة متوّجة ، بين سماء الله وأرض الموتى ،
توزع شخيرها وشماتتها ورثاءها النهائي
تحتم الجبال والحدائق ، وتنفث طنينها في الهواء . .

ذبابةٌ ـ ملكٌ .
ذبابة ـ تاجٌ .
ذبابة ـ أحدٌ ـ ختامٌ ـ جبانات . . :
هذا
ما
سوف
يبقى

٧٩/١٢/...

كم من البلاد أيتها الحرية

(إلى قوة العدالة في قلب هذا الرجل..)

- ١ -

ماذا يحدث في أمريكا
ماذا يحدث في العالم
حين، باطمئنانٍ شديد وقبعةٍ مائلة،
يطلق السيد س. نار مسدسه على الرجل المطل من النافذة
ليرقب مطلع الشمس؟!

ماذا يحدث في أمريكا
ماذا يحدث في العالم
حين، ببساطة شديدة وقبعة مائلة،
يطلق السيد س. نار مسدسه
على الرجل الذي شاهدَ الجريمة وأراد أن يحتج؟!

ماذا يحدث على الأرض
ماذا يحدث في السماء

حين ، بهدوء شديد . . ببساطة . . بقلوب متماسكة وأيد ثابتة ،
يمسك رجالٌ مسلحون رجلاً أعزل
منهالين عليه بالأحذية والسياط والخناجر
ثم يديرون أقفيتهم وينصرفون
بهدوء القتلة ووقار القديسين؟!. . .
ماذا يحدث على الأرض
ماذا يحدث في السماء
حين تفتح امرأة غطاء النعش وتصرخ : يا ولدي
حين ، ببساطة ، يبتسم نجارو التوابيت
وحفارو القبور
ومنظفو الشوارع من الموتى
حين يتجول محنطو الجثث في الأحياء ،
ويطرقون الأبواب . . عارضين خدماتهم على النسوة
وفي أكشاكهم ، على الأرصفة ،
يساوم باعةُ الدم على مثلجاتهم الطازجة؟!

ماذا يحدث؟ ماذا يصير؟
في المنازل وعلى الأرصفة؟
في السماء وعلى الأرض؟
ليقل لي أحد منكم . .

ليقل لي أحد منكم :
ما الذي يحدث
ما الذي يصير
للاشجار المثابرة وطيور السماوات المتسامحة
للحجارة ومياه البحر
في القلوب وتحت الأغطية
ما الذي يحدث .. ما الذي يصير؟!..

. . . . . .

: لا شيء أيتها المرأة .
لا شيء أيها الرجل .
لا شيء يا أصدقاءنا ..
أيها الخونة المؤجلون
لا شيء يحدث في مكان
لا شيء يحدث لأحد
سوى أن القتلة ، وهم يديرون أقفيتهم للجثة
يؤرجحون مسدساتهم بمهارة
ويركّزون رؤوسهم فوق الياقات
مدندنين بألحانٍ رقيقة وصفيرٍ ناعم
(على نحو ما كان يفعل الموتى)

كيما يتسنى لنا ، نحن الذين ما نزال أحياء ،
أن نعرف :

كم القتلة ، حين يديرون أقفيتهم ،
يتلذذون بالموسيقى ويجيدون الصفير المرح!!..

- ٢ -

وحين ، في المنتصف الكتيم من الليل ،
تَسحب الأنشوطةُ المُحْكَمة ، من عنقه التعيس ،
قلبَ الرجل المتدلي في الهواء الأسود
حين ، المرأةُ العائدة من الحلم بابتسامة وكيس خضار
وربطة خبز صغيرة ، تُسحب من ذراعها وتدخل القبو
حين يقال للرجل الملصق على الحائط : لا تتحرك
للمرأة الممددة على الأرض : كوني سعيدة
حين ، كالنواة القاسية ، تُلفظ الروح من الفم
وكالغبار يتراكم الموت على الجلود المفكرة
ما الذي يحدث في قلبك
ما الذي يحدث لعينيك
أيها الله المنهمك في التعاسة والنوم والغفرانات المريرة؟

. . . . . .

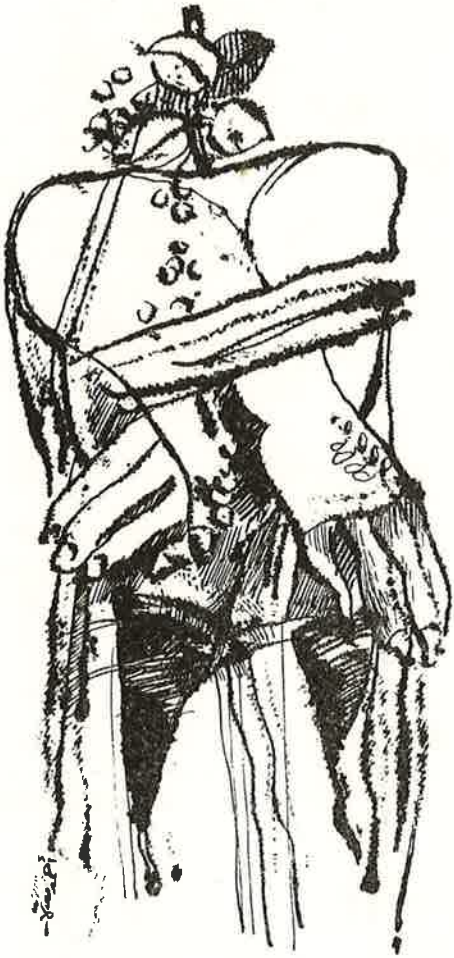

لا شيء يحدث في روما
لا شيء يحدث في الصين
لا شيء يحدث لأحد
لا شيء يحدث في مكان
لا شيء على الأرض
لا شيء في السماء
... وأرواحُ الرجال تختلط بالهواء الأسود!!

- ٣ -

كم طلقةً يستوعب القلب؟
كم خنجراً يتحمل الجسد؟
وكم من البلاد يلزم لانشاء الحرية؟

كم من الشجاعة..
كم من اليأس
لقولِ كلمة حقٍ واحدة؟
ليومٍ من الحياة أو ثانيةٍ من الذل؟
لمتابعةِ نموّ الأرواح الهزيلة في أجساد الخنازير؟
للمرأةِ التي تحاول أن ترفو ثقوب قلبها

أمام الله النائم ، والجلادين ذوي الصفير المرح
عائدةً من الليل بثوب أسود وقلب مثقوب؟!

كم من الشجاعة؟
كم من البلاد؟
وكم من اليأس يلزم يا إلهنا؟

- ٤ -

أيها الرجل الجالس هناك
في المقهى أو على العرش
محصناً بجدارين وطاولة وثلاث كراس..
هل تعرف من أين تأتيك الرصاصة؟

أيها الجالس هناك
في صميم الوحشة
تحصي جذوع الأشجار وتراب الأرض
محصناً بالليل والوحدة والسماء المطمئنّة...
هل تعرف من أين تأتيك الرصاصة؟

أيها الأخير الباقي من سلالة الموتى

معفىً من السجون والأحذية وبنادق القناصة
هل تعرف من أين تأتيك الرصاصة؟

. . . . . .

أيها الرجل الجالس هناك
محصناً بجدارين وطاولة وثلاث كراس
بالليل الموحش والسماء المطمئنة
معفى من السجون والبنادق والأعين المتفحصة..
هل تعرف أيها الرجل؟
هل تعرف أيها القلب؟
: ستأتيك الرصاصة من أصابعك.

- ٥ -

رصاصة في القلب
رصاصة في الدفتر
رصاص في السرير..
رصاص على الأرصفة
وتحت الرصاصْ.. تحت الرصاص
رجالٌ مبعثرون..
ينهمكون في البحث عن مستنداتٍ لإثبات الألم..

مستنداتٍ لائقةٍ لإثبات الحب
جواهر لائقةٍ لإثبات صحة الموتى
كلٌّ على طريقته
كل أرضٍ على دساتيرها ومقتضيات فرائسها:
عدالاتٌ تشيخ..
عدالاتٌ كاذبة..
عدالات بسراويل وأقمطةٍ ونياشين متفسخة
كل نابوليون على طريقته
كل أرض على هواها:
تيجانٌ متأرجحة..
تنفث رماداً وتنام في رأس الصفحة.
لا أعني الكلاب.. فالكلاب عادلة
لا الذئابَ..
فالذئاب تعرف وقتها النبيل
ولا تأتي في المناسبات
لا الأفاعي..
لا الحلزون..
لا الديدان المخمورة؛
البلادَ.. البلاد

البلاد ذات الانياب والأوشحة وحمالات السراويل
بلادَ السفلة والمزوِّرين وحفظةِ كلام العدل
بلادَ الحرية أيها الموتى
بلاد الاقفال.. أيها الأحرار الدنسون
بلاد القداسات الشريرة والاثداءِ المنفوخة بالغازات السامة
البلادَ الجالسة على نفسها.. تتلقى مفرزات أرحام النساء
البلاد المفتوحة على المقابر
البلاد المقابر.. المقابر
البلاد.. بأرصفتها ومنشديها وحَمَلة نعوشها
البلاد التي أنت فوقها، لا عليها يا الله.. لا عليها!..
تقيم في الهواء..
معلّقاً تحت سماءاتها القارسة وسقفها الهش.
تعيساً كالملائكة
مهجوراً كقلب الذئب
تبحث عن مستنداتك اللائقة لإثبات الألم!!

- ٦ -

وهناك الحرية أيضاً.
الحرية المخبأة تحت الإبط

المتحفّظُ عليها بين الحذاء وباطن القدم
اللقمة التي لا تنضج: الحصاة
الحرية الحصاة يا الله...
يا الله.. أيها اللذيذ الذي، بين السماء القارسة
والأرض المفتتة،
تتأرجح وحيداً كتاجٍ غابر
قانعاً بذنوبك وخطاياك وأمثولاتك الباهظة.
أيها اللهْ.. أيها الله..
فوق الأرض المكتسية بغبار العدل
تحت السماء الشريرة
تنفرد بعذاباتك الموحشة وقلبك المنفوخ من البرد
مثقلاً بجلافة الرهبان وأصدقاء الجنازة الزور..
بالصامتين..
الصم..
المقفلةِ قلوبهم:
مقفلة قلوبهم يا اللهْ.. فماذا تفعل؟
يا اللهْ... فماذا أفعل؟!

- ٧ -

وهذا فُتات الأرض
وهذا فتات قلبي
النذير الأخير للصاعقة..
النذير الاول للحرية..
نذير الوحشة الأكيد.
يا الله.... فماذا؟
يا حرية... فماذا؟
وماذا تحت إبط العاهرة وبين ثدييها المنفوخين بالهواء؟
أيها العادلون.. وماذا..
بين حذاء النابليون وباطنِ القلب؟؟

- ٨ -

ورائي ثلاث وثلاثون سنة فقط
وليس لدي من الوقت ما يكفي لاكرهك..
أيها الرجل الصغير الذي يجلس صامتاً في المؤتمرات.
ثلاث وثلاثون قبّرة تعوي في قلبي:
من يملك الرصاص الكافي لإسكاتها؟

ومَنْ، على هذه الطاولة، يحلم بإسقاط عرش الأرض؟
قبراتٌ.. قبرات وذئاب ونيازك تهوي في القلب
على عَجلٍ...
على عجل شديد.. كيلا يدركها الطلق الناري
قبل ملامسة الماء
قبرات...
ثلاث وثلاثون قبرة وذئاب
ونابوليون وحيد مدجج بالسنانير والنعوش والكتب الثقيلة
عارياً ومتوروداً على الشاطىء
يغري الاسماك بالجري على الرمال
القبراتِ بإهمال السماء الرقيقة
الذئابَ بالوداعة والاسترخاء الأخوي على اعتابِ
مؤسسات خضار الحكومة
كم من الله اذن..؟
كم من الوقت يلزم لإثبات الالم؟
كم من الرصاص؟
كم من اليأس يا إلهنا...
يلزم لإثبات كراهية الرجل
الذي يجلس صامتاً في المؤتمرات؟؟!

- ٩ -

وحين تَدخل الأرنبةُ الخائفة وتحتمي بالضلع الهزيل
فما الذي يحدث في قلبك؟
وحين تهوي السِّمنة
منفلتةً ، بمحض النعاس وانعدام الحيطة ، من بين يدي الرب
متزحلقةً ، بفعل جاذبية الوقت ، عن ركبتيه الزرقاوين
هازّةً طرف العباءة
منفلتةً كنبضةٍ مذعورة تحركت في القلب
ثم ... بمحض الموت وسوء الطالع
يصطدم قلبها بالرصاصة وتهوي
بمحض الموت ..
بمحض رصاصة ..
بمحض النعاسِ على ركبة زرقاء
: نبضةٌ مذعورة تحركت في القلب .. وانطفأت .
ثم .. ما الذي يحدث في أميركا؟
ما الذي يحدث لعينيك .. يا إلهنا؟!...

- ١٠ -

لا كلامَ في الكتب يكفي لاثبات كراهية رجل المؤتمرات

الصامت

لا ذهب في الخزينة يكفي

لتسديد ثمن الرجل الذي مات في بيروت

-على سبيل المثال -

بسبب رصاصة.. أو كذبة... أو بسبب الصمت

لا ذهب يكفي ولا مرتّلين

لا رصاص ولا أحذية

تكفي لإسقاط الأرض المترجّلة على الرصيف

تعرض بضاعتها المسروقة

ومصوغات نسائها المنفوخات بالهواء الازرق

والاصباغ الثقيلة

وثاني أوكسيد الدولة.

لا نوم يكفي لنسيان بكاءات الطفولة

وانكسارات شباب القلب

لا صلبان.. ولا مقابر.

و.. لا خَلّ.

لا خلَّ يا الهي لإثبات المرارة في القلب المفتوح على نفسه

أمام قضاة الجهنم

الذين يعرفون الحق جيداً.. وينحازون الى جانب الشياطين

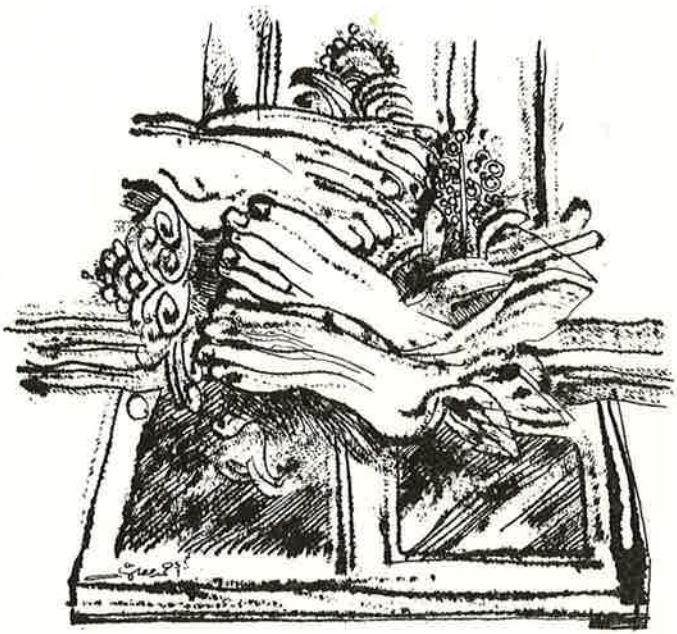

ولا عدالةَ.
لا عدالة يا إلهنا..
للتمييز البطيء.. بين أوجاع هيروشيما ووقاحة القنبلة
وإلا فمن يقول لي
وإلا فمن يتأمل عني
وإلا فمن يملك المعرفة:
أيهما ذاكرتها أقوى.. هيروشيما أم القنبلة؟
أيهما قلبه أعْدَل..
الصامت أم الميّت؟
المؤتمرات الكسيحة أم المقابر؟
إسألوا الموتى إذن.
إسألوا الموتى..
أيهما قلبه أعدل أيها القديسون!!؟

- ١١ -

لقياس ثمن رجل.. أيها النابوليون
تلزمك رصاصةٌ أمام القلب مباشرةً..
لقياس ثمن رجل.. أيها النابوليون
تلزمك أحكامٌ جاهزة وقضاةٌ جحيميون

حصاةٌ في الفم.. وحذاءٌ على الضلع
اذاعةٌ.. ونعوشٌ..

وورقة لكتابة كلِّ الكلام النائمِ في الجسم
تلزمك زنزانة وطغاة مدرَّبون
ليلٌ واقفٌ على منتصفه
ومشنقة مهيأة قبالة العين.

لقياس ثمن رجل أيها النابوليون
تلزم خزائن مليئة
وبلادٌ قيد التداول
دباباتٌ ورسائل وجوازات سفر
آلهة.. وآلهة.. وطلقةٌ وحيدة أمام القلب،
تلزمك أظافر مسحوبةٌ من أصابعها
وملايين النبضات المذعورة

المرتجلة في الفسحة المتبقية من الليل المنتَصِف
يلزمك أن يقرأ عليك المعرِّف آخر الصلوات
والجلادُ آخرَ الخناجر
واللهُ... آخرَ منتصفاتِ الثواني.

.. ومرةٌ واحدة من الموت تلزمك
لقياس ثمن رجل...

أيها النابوليون الضيق

- ١٢ -

كل عادل وحيد
كل ذئب وحيد
كل عادل . . وكل طاغية . . وحيدٌ أيها القلب
كـل رجـل لا يصمـت في المؤتمرات ومنتصفـات الإعـدام
الكتيمة .
وكل يسوع أيضاً
كل يسوع منهكٍ من البراءة والتأمل
متكئاً على أورامه الخاصة
منتظراً ، تحت وطأة مشاعره القاسية وناره المؤكدة ،
انهيارَ النيزك وسقوطَ القبعة . .
يرقب ، على التخوم القاتمة للبلاد ،
الدباباتِ التي تتبادل القبل والقذائف . . .
والأغطية . .
مُدْلياً بأناجيله الصريحة وقلبه المثقوب
معكّراً قتامةَ النعاس
وغبارَ الكتب

ومقتضياتِ الفرائس الهالكة.
كلٌّ يسوع على طريقته أيضاً،
كل زلزال على حكمة قلبه وعدالته المؤقتة
كل عادلٍ وكل قبرة
كل امرأةٍ وكل ذئب
يدلي بقلبه الصريح وعينيه السديدتين
أمام النعش المتفتح.. على حافة البلاد المهلكة.

- ١٣ -

... وماذا تقول أيضاً...
في الجبال المدحورة
والخنادق المطوطة على قياسات أجساد الجنود؟
في الأوقات الشرهة وأحكامِ التراب الشرير؟
في القضاة النائمين على أورامهم الخبيثة
قضاة الجهنم المحنكين
شُرّاحِ الكوابيس ومفسري مرارةِ القلب
حين يعترفون لك بجدارة الحمى
منبهرين بتعاستك
أقوياءَ..

أقوياءَ
أقوياء
.. كسرطان العظم المستفحل
وصغاراً أيضاً..
وصغاراً أيضاً..
صغاراً أيضاً... كجلادي قوانين الطوارىء!!
حتى وهم يقترعون على عينيك وقصائدك
مانحين أنفسهم الحقَّ في الابتسام لسذاجة الزهرة
وبراءةِ السِمّنة المتزحلقة في الهواء الأزرق
منْقضّينَ على عنق الطائر.. بنجاسات الكتب
وحثالات الأسلحة
صغاراً
وموتى
ووحيدين...
كصدى العواء المتقهقر على حوافّ الليل.

- ١٤ -

وهناك الشعراء أيضاً.
الشعراء الذين، وأنت تتفتت تحت وطأة مشاعركَ القاسية،

موزّعاً نفسك على أطراف القصائد
ولحى القديسين
وتخوم البلاد القاتمة ،
ينفردون بالابتسام والورقة
ويختبرون أقلامهم بصلاحيتها لاختراق قشرة القلب .
الشعراء المضبوطةُ أجسادُهم على قياسات معاطفِ جلادي
الليل
وأرواحُهم على المساحات الشاغرة في أجساد الخنازير .
الشعراء الذين . .
لا بمحض رصاصة
لا بمحض الموت وانعدام الحيطة
لا بمحض القلب ،
يزررون معاطفهم على المسدسات
ويختمون ياقاتها بالقرنفل المتفتح في النصفِ
الساكنِ من الليل المميت . . .

:«في النصف الساكن من الليل المميت . . يجرؤ القرنفل
على اعلانِ تفتّحه أيها اليسوع؟!
في النصف الساكن
تجرؤ الضفادع والنجوم المتأخرة؟

والنار المشرعة في كولبات أطراف المدن؟ »

كم من الأشياء إذن.. كم من الكائنات
تجرؤ على إعلان نفسها في ذلك النصف التعيس؟
وكم من الشعراء أيضاً،
أيها اليسوع الهالك
أيتها القرنفلة البائسة،
يتفتحون بجسارة
وأيدٍ مغسولة
وقبعاتٍ نصف مائلة
سعداءَ بدناءاتهم
مستكينينَ لحصانة الجلادين وثباتِ المشنقة
. وصغاراً أيضاً..
. ووحيدينَ، وحيدين... أيضاً وأيضاً وأيضاً
أيها اليسوع المجرَّدُ من القرنفل
أيتها القرنفلة المجرَّدة من النهار!!..

- ١٥ -

، ... وإذن أيتها المقصلة؟...

فها نحن أخيراً . ها نحن أخيراً
عرضةً لليل ، عرضةً للمقابر
مبثوثينَ في الخنادق والمؤتمرات وحقائب الأمتعة .
مُعلَنين وصريحين كقطرةِ الدم في أوراق هذا الدفتر :

... يا لتعاسة الأرض
نتذكر الخونة ونبصق عليها!
يا لتعاسة الكلاب
نتذكر الجلادين ونرضّ أضلاعها بالاحذية!
ونعرف لماذا لا تسقط النيازك في الظهيرة .
ونعرف لماذا تخجل القرنفلة من التفتح قبالة العين .
ولماذا .. شعراء ثاني أوكسيد الدولة .
ينهمكون نهاراً في الكوابيس
وليلاً في الحصانة الموحشة

. . . . . .

وإذن .. فها نحن نعرف أيتها القرنفلة
كم من النهار يلزم لتفتّح قلب الحرية
كم من الأرض يلزم لاستيعاب البصاق على ذكر الخونة ..
وكم من الاسنان لتَذَكُّرِ أن اكتافَ الجلادين ،

هي الأخرى قابلـةٌ للدم
قابلةٌ للدم
قابلةٌ للدم..
أيتها
القرنفلة
المتفتحة
في عرض النهار.

- ١٦ -

لا نهارَ يكفي للقرنفل.
لا رصاصَ يكفي لإسكات النابليون
ذي القبعة المائلة والابتسام الدائم.
لا شجاعةَ تكفي ولا ألله!!..
وقلبُكَ المفكّكُ على رصيف البلاد
يذوي ويندمل..
ثم يذوي ويندمل..

ثم .. يذوي
منتعشةً مفاصلُهُ
بثاني
أوكسيد
الحرية

شباط ١٩٧٩
دمشق

فهرس

أكتب حديقة وأمضي	٩
هيلين	٢٧
المضيق	٥١
ما سوف يبقى	٧٧
كم من البلاد أيتها الحرية	٩١

صدر للشاعر

الوجه الذي لا يغيب	١٩٦٧
عن الخوف والتماثيل	١٩٧٠
حوارية الموت والنخيل	١٩٧١
وشاح من العشب لأمهات القتلى	١٩٧٥
أيها الزمان الضيق أيتها الأرض الواسعة	١٩٧٨
كم من البلاد ايتها الحرية	١٩٧٩
الله قريب من قلبي	١٩٨٠
تعالوا نعرّف هذا اليأس	١٩٨٠

معد للطبع

ما ليس شيئاً

المسيح ينام في الغابة (رواية)

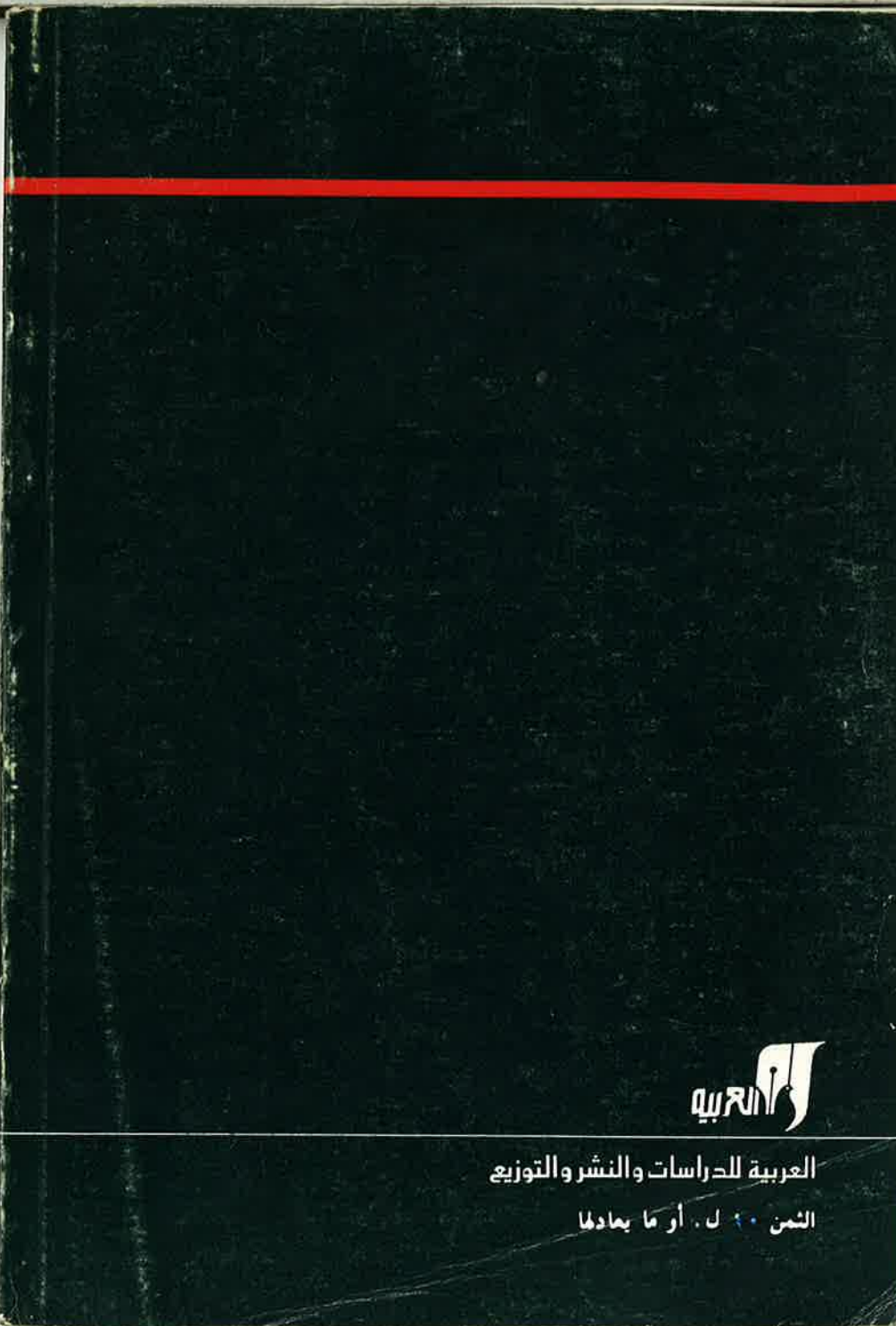

العربية للدراسات والنشر والتوزيع

الثمن ٢٠ ل. أو ما يعادلها